القائد الشاب ...

للأستاذ أحمد فتحي مرسي

[لقد بلغني أن قوماً يقولون في إمارة « أسامة » ولعمري لئن قالوا في إمارته لقد قالوا في إمارة أبيه من قبله ، وإن كان أبوه لخليقاً بالامارة وإنه لخليق لها .]
(حديث شريف)

جرى على شفاه القوم في المدينة في ضحوة ذلك اليوم من ربيع السنة الحادية عشرة للهجرة أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - أمر بالعُدة لغزو الروم وأَمَّر على الجيش « أسامة بن زيد بن حارثة »

ووقع هذا الخبر من الناس موقعين : وقع من نفس قوم موقع العجب والدهشة ، ووقع من نفس أقوام موقع التجلّة والطاعة . وكان الناس في المدينة بين هؤلاء وأولئك ... فأما الأولون فقد عجبوا كيف يُؤَمَّرُ على جيش يضم صفوة المهاجرين والأنصار شاب حدَثٌ كأسامة لم يَعْدُ العشرين ربيعاً بعد ، وكيف ينفرون للغزو وهم لم يعودوا من حجة البلاغ أو الوداع إلا من زمن قريب ، ولم يستقر بهم المقام بعدُ في المدينة ، حتى وقع في روع بعضهم أنهم سيحيون حياة دَعَة وهدوء ، بعد أن نصر الله دينهم ، ودخل الناس فيه أفواجاً ، ودانت شبه الجزيرة جميعها لدعوة الرسول الجديد ، فما بهم حاجة لغزو آخر بعد هذا الجهاد الواصب الطويل ، وبعد أن أكمل الله لهم دينهم ، وأتمَّ عليهم نعمته ، ورضي لهم الإسلام ديناً

ثم إن الروم عدو لا يهون أمره ، ولا تلين قناته ، فقد قهر الفرس ولم يستطع العرب أن يقهروه ؛ وهو فوق ذلك حامي المسيحية ، وإن به لشوقاً للقاء هؤلاء القوم الذين أجلوا المسيحية عن أوكارها من شبه الجزيرة ... وهم ما زالوا يذكرون غزوة « مُؤتة » وكيف خرج لهم الروم في مائة ألف ، وكيف ذهبت هذه الغزوة بثلاثة من صفوة قواد المسلمين ؛ ولولا مهارة رايعهم خالد بن الوليد في الانسحاب للحق بهم ولفتك الروم بالجيش ، وإنهم ليذكرون أيضاً كيف تقاعس الناس بعد خبر « مُؤتة » عن لقاء الروم في تبوك ، حتى قال بعض ضعاف النفوس للناس : لا تنفروا في الحر إلى تلك الأصقاع . فنزل قوله تعالى « وقالوا لا تَنْفِروا في الحرِّ قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حرًّا لو كانوا يَفْقَهُونَ » ... وحتى ذهب البعض الآخر يتلمس الحجج الواهية ليأذن له النبي في البقاء كما فعل الجدُّ بن قيس حين قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هل لك العام في جلاد بني الأصفر ؟ » فقال : « يا رسول الله أو تأذنُ لي ولا تَفتِنّي فوالله لقد عرف قومي أنه ما من أحد أشدُّ عُجْباً بالنساء مني . وإنّي لأخشى إن رأيت بني الأصفر ألا أصبر » فأعرض عنه الرسول ونزلت فيه الآية «ومنهم مَنْ يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين »

فعدوٌّ تلك حاله وحال المسلمين معه ، كيف يكون على رأس جيشه غلام حدث كأسامة ، وكيف يعقد له اللواء في جيش يضم صفوة الأنصار ، وشيوخ المهاجرين الأولين كأبي بكر وعمر ؟

تلك قصة القوم من ضعاف الإيمان فما خبر المؤمنين ؟

لقد قال المؤمنون إن هذا أمر الرسول فعليهم طاعته . ألم يقل الله تعالى : « ومن يُطِع الرسول فقد أطاعَ الله » . ألم يقل عز وجل : « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبيَّن له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوَلِّه ما تولّى ونصله جهنم وساءت مصيراً » . ثم إن الغزو جهاد في سبيل الله ، وإن المرء لفائز فيه بأحد الحسنيين : الاستشهاد أو الظهور ، وما أحدهما إلا خير عند الله من الآخر ... صحيح إن أسامة شاب لم يعدُ العشرين ربيعاً ، ولكن أليس الشباب أنفذ عزماً ، وأنهض همة ، وأبعث للحمية في النفوس ؟ ... ألم يحن الوقت بعد ليحمل الشباب لواء هذا الدين الجديد ، وينهض بأمره ، ويشترك في تحمل تبعاته الجسام ؟ ثم أليس أسامة من خيرة شباب الإسلام : أليس أبوه زيد بن حارثة مولى رسول الله وصاحب ثقته ، وثاني من آمن به من الرجال بعد عليّ بن أبي طالب ، وأول من استشهد في غزو الروم في مؤتة وبين يديه لواء الإسلام ؟ أليس أسامة من استشاره النبي في حديث الإفك عن عائشة وهو صبي صغير ؟ إن المسلمين ما زالوا يذكرون يوم دعاه النبي ودعا معه علي بن أبي طالب إلى منزل أبي بكر ليستشيرهما في أمر عائشة وصفوان ، وقد استفاض حديث الناس وكثر القول . فأما أسامة فقد قضى أن الحديث إفك وبهتان عظيم . وأما عليّ فقد قضى قائلاً : إن النساء لكثير غيرها . وأما الوحي فقد قضى بما قضى به أسامة : « ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم »

أليس أسامة بعد هذا كله حقيقاً بهذه الثقة الغالية ؟ ! إذن فليمض على بركة الله ، ولينتقم لأبيه الشهيد ، وليضرب للشباب مثلاً يخلد على الدهر

ودعا النبي أسامة فعقد له اللواء وأوصاه أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم فى أرض فلسطين على مقربة من « مؤتة » حيث قتل أبوه ، وأن ينزل على أعداء الله وأعدائه فى عماية الصبح ، وأن يمعن فيهم قتلاً ، وأن يحرقهم بالنار ، وأن يتم ذلك دراكاً حتى لا تسبق إلى أعدائه أنباؤه ، واستوصاه بالنساء والأطفال خيراً ، وأمره بأن يخرج إلى الجرف — على مقربة من المدينة — حتى يتم جهاز الجيش ... وخرج أسامة فضرب لواءه بالجرف ، وأقام فى انتظار أمر الله وأمر الرسول

وإن أسامة لفى ارتقاب أمر المسير ، وإن الجيش لفي جهازه وعدته ، وإن الناس لفى حديثهم عن إمرة أسامة على شيوخ الإسلام ، إذ مرض الرسول عليه الصلاة والسلام مرضه الأخير بعد جهادين طويلين فى سبيل الله : جهاد الروح فى الرسالة ، وجهاد الجسم فى الغزوات والحروب . واشتد به المرض حتى لم يقو على مجالسة أصحابه ... ولكن يشاء الله أن تبلغ همسات الناس فى أسامة آذان ذلك الراقد على فراش مرضه ، الذى برحت به الحمى حتى عاد يشعر كأن به منها لهباً ، يشاء الله أن يبلغ أذنيه أن الناس يقولون إنه أمّر على جلّة المهاجرين والأنصار غلاماً حدثاً . فيعز عليه ذلك ويخشى أن تقع الفتنة فى الناس ، فيطلب إلى أهل بيته أن يريقوا عليه سبع قرب من آبار شتى حتى يذهب الماء ببعض حرارة الحمى . ثم يعصب رأسه ويتحامل على نفسه ويتساند حتى يبلغ المسجد ، فيجلس على المنبر فيحمد الله ويصلى على أصحاب أحد ثم يقول :

« لقد بلغنى أن قوماً يقولون فى إمارة أسامة ، ولعمرى لئن قالوا فى إمارته لقد قالوا فى إمارة أبيه من قبله — وإن كان أبوه لخليق بالإمارة — وإنه لخليق لها فأنفذوا بعث أسامة » ثم يقول : « إن عبداً من عباده خيّره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله » ... ويدرك أبو بكر والناس ما بهذه العبارة من إنعاء فيتأثر الناس ويبكى أبو بكر ...

ويثقل المرض على المريض بعد ذلك الماء الذى صبّ عليه وهو فى لهب الحمى ، وبعد ذلك الجهد الذى بذله فى خطاب الناس فيأمر أبا بكر أن يصلى بالناس ، ولا يلبث أياماً حتى يسلم أنفاسه الطاهرة فى حجر عائشة وهو يقول هامساً : « بل الرفيق الأعلى من الجنة »

ويبلغ نعى رسول الله أسامة بالجرف ، فيهبط وجيشه إلى المدينة ويركز لواءه بباب عائشة ... ثم تتعاقب الأحداث ، ويلى أبو بكر الخلافة ، ويعود الناس إلى حديثهم عن إمرة أسامة ... لقد مات الرسول فما ضرهم لو عاودوا الأمر على أبي بكر لعله يلين حيث صلُب النبيّ ، ويولى أمرهم رجلاً أقدم سناً

ويجتمع الأنصار ويحملون رسالتهم عمر بن الخطاب ويقولون له : « أطلب إلى خليفة المسلمين أن يولّى أمرنا رجلاً أقدم سناً من أسامة » . ولعل عمر كان يجاريهم هذا الرأى . لعله كان يشق عليه وهو الذى قدمه أبو بكر للخلافة بعد رسول الله فى اجتماع السقيفة أن يتأمر عليه شاب حدَث لم يكن له مثل جهاده فى الدين . لعل ذلك جال فى ذهن عمر لأنه سارع يحمل الرسالة إلى أبى بكر

ويصل عمر بالرسالة ويبلغها أبا بكر فيغضب أبو بكر ويقول : — « ثكلتك أمك يا ابن الخطاب ... استأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمر أن أنزعه . . . » ثم يقوم الخليفة الشيخ ويأمر بإنفاذ الجيش ، ويخرج يستنهض الناس ، حتى إذا تم جهاز الجيش سار يشيعه وهو ماش وأسامة راكب . فيعز على أسامة أن يسير خليفة المسلمين — وهو إذ ذاك شيخ فى الستين — وهو راكب إلى جواره فيقول له : « يا خليفة رسول الله والله لتركبن أو لأنزلن » فيرد أبو بكر : « والله لا تنزل ووالله لا أركب ، وما علىّ إلا أن أغبّر قدمىّ فى سبيل الله ساعة فإن للغازى بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له وسبعمائة معصية ترفع عنه »

ويخرج الجيش إلى الصحراء ، وهنالك يدعو له أبو بكر ويطلب إلى أسامة أن يأذن لعمر في البقاء ليشير عليه فيأذن أسامة ويسير الجيش على بركة الله ورعايته

تُرى هل يحقق أسامة ثقة النبي به ؟ تُرى هل يفلح حيث أخفق أبوه وثلاثة من خيرة قواد المسلمين ؟ ترى هل يقهر عدواً لم يقهره أحد من أهل زمانه ؟ ترى هل يقطع ألسنة المجادلين المكابرين القليلى الثقة به وبالشباب ؟ ترى هل يرفع رأس شباب الإسلام ، [illegible] له الاضطلاع بما يثقل من الأعباء ؟

تعاقبت شهور وأيام ...

فمن ذلك العائد إلى المدينة يتخطر على ظهر جواده ؟ ولمن هذا